

محادثة (١)

بين الأسد البريطاني والدب الروسى

الأسد : — قل لى أيها الدب ! لماذا هذا التناقض الظاهر الذى يلحظه الناس بين آرائك وسلوكك السياسى ؟ فحين بدأت ثورتكم الكبرى استنكرتم سياسة القياصرة القديمة ، ونددتم بمخطط التوسع تديداً أدى بكم إلى التبرؤ من المعاهدات التى كانت فى مصلحتكم ، كمعاهدة لندن السرية التى عقدناها معاً فى سنة ١٩١٥ وتعاهدنا فيها على أن تكون القسطنطينية ومنطقة المضائق من نصيبكم متى انتهت الحرب بهزيمة الوحش وزميله الذئب التركى ؛ فقد فضحتم حينذاك سر المعاهدة ، وأعلنتم زهدكم فى شروطها ، وكسبتم بذلك صداقة الذئب . وفعلتم مثل ذلك فى بلاد الفرس ، فزرتهم عن منطقة نفوذكم وعن امتيازاتكم فيها ، وقدمتم مؤسساتكم ومهماتكم هدية منكم للشعب الإيرانى . ثم ما هى إلا بضعة سنوات حتى تنكرتم لمبادئكم تلك ، وبعثتم السياسة القيصرية القديمة من مرقدتها ، وأصبحت سياستكم الخارجية ، سواء فى البحر المتوسط والمضائق أو فى شبه جزيرة البلقان أو فى خليج فارس أو فى غرب آسيا والمحيط الهادىء صورة طبق الأصل من سياسة التوسع التى كانت تسير عليها الحكومات الأوتقراطية فى عهد القياصرة .

الدب : — وما دخل مبادئ الثورة فى السياسة الخارجية للدولة ؟ إن من الحق أن تؤثر الآراء الثورية فى سياسة الأمة الداخلية ، فتصدر التشريعات وتسن القوانين مشربة بالآراء الحديثة . أما فى السياسة الخارجية فإن الاعتبارات الجغرافية والتاريخية الثابتة هى التى تتحكم فى توجيهها مهما كان لون الحكومة القائمة بالأمر قيصرية كانت أو بلشفية . . .

وهل تأثرت سياستكم الخارجية بتقليد العمال زمام الحكم بعد المحافظين ؟ إن الخطوط الرئيسية لسياسة العمال الخارجية هي نفس الخطوط التي رسمها تشرشل والمحافظون ، وإن اختلفت طرق تنفيذها والتفاصيل التي تشتمل عليها . وكذلك الحال في روسيا وفي سائر البلاد العريقة في تاريخها وتقاليدها . لا مندوحة لها عن التأثر بحقائق تاريخها وجغرافيتها . فمن الحقائق الجغرافية مثلا التي تسيطر على سياسة روسيا الخارجية مهما تغيرت نظم الحكم فيها ، أنها بلاد توشك أن تكون مغلقة ، بسبب تجمد مياه البحار المحيطة بها في معظم شهور السنة ؛ ولذلك تراها دائبة السعي للوصول إلى منافذ تطل منها على الخارج وتيسر لها الاتصال بالمناطق الدافئة النشيطة في تجارتها الغنية بموادها . ومن الحقائق التاريخية التي تبرز بدماء الروس ولا تنفك مسيطرة على أذهانهم ، أن هناك شعوبا في البلقان تنتمي إلى الجنس السلافي أو الصقلي الذي تنتسب إليه روسيا . وما فتىء الروس طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين يعطفون على تلك الشعوب ويدربونها ويمكنون لها حتى تخلصت من نير الأتراك ، ثم اطردها عنها وكل استقلالها ، وباتت روسيا تعتقد أن من حقها على تلك الشعوب أن تخصها بمكانة تمتاز بها على سائر الدول .

وإذا كان دعم الثورة قد استدعى في أول الأمر أن نركز جهودنا في سياستنا الداخلية ، وأن نعتصم بالأناة والصبر إزاء ما فرضته علينا الدول من قطيعة وطرد وحرمان ، فإننا لم نر بدأً من أن نطرق باب الشرق مادام الغرب قد أوصد أبوابه دوننا ؛ فعدنا معاهدات الصداقة وحسن الجوار مع تركيا وإيران وأفغانستان . ولما لم تقبلونا أو تدعونا معكم في عصبة الأمم ، تفاهمنا مع الوحش المنهزم ، واتسعت مسافة الخلف بيننا وبينكم ، إلى أن اكفهر الجو في أوروبا وتلبدت سحب الحرب الأخيرة ، فاجأتم إلينا ولكن بعد ضياع الوقت

الأسد : — إذا كانت حقائق التاريخ والجغرافية هي التي تملي عليكم سياستكم الخارجية ، فما معنى المشاكل التي تثيرونها في إيران والبلقان والمضايق وفي تريسته ومستعمرات إيطاليا القديمة ؟ وأي اعتبارات جغرافية أو تاريخية تدعوكم إلى التدخل في شؤون دولتين مستقلتين كإيران وتركيا ، أو إلى المطالبة بضم طرابلس أو جزر الدوديكانيز ؟ فهل كان أهل إيران وتركيا من العنصر السلافي

الأرثوذكس؟ وهل كانت جزر الدوديكانيز واقعة في البحر البلطى أو هي لاتزال قائمة، كما تعلم المدارس تلاميذها، في شرق البحر المتوسط، فليس يهم أمرها سوى اليونان؟ وكيف انقلب الذئب التركي فجأة إلى وحش مخيف، فأخذتم منذ انتهينا من الوحش تحاولون الانتفاض عليه ظلاماً وعدواناً بعد أن صادقتموه في بدء ثورتكم، ودافعتم عن مصالحه في وجه الدول جميعاً؟

الدب: — من الاعتبارات الجغرافية التي تتحكم في توجيه السياسة الخارجية لدولة ما، المواقع والنقط الاستراتيجية التي يتوقف عليها تأمين حدودها وسلامتها من العدوان. وبلادنا كما تعلم بلاد مترامية الأطراف، إذا تهانوا في حماية حدودها من الخارج انهار البناء كله من الداخل؛ إذ لا بد من أن يطمئن الشعب داخل حدوده حتى يستطيع أن يتفرغ للنهوض ببلاده. ونحن شعب حديث العهد بالحرية، ولا بد له من الاستقرار حتى يتعلم ويتدرب ويتقدم. وأتني يتهياً لنا الاستقرار إذا كنا في الجنوب تحت رحمة تركيا: إن شاءت فتحت لنا المضائق وإن شاءت أغلقتها في وجهنا وحبست عنا تجارة البحر المتوسط؟ ومن أين لنا الأمان والسلامة وفي الجنوب الشرقى بركان من الأكراد لا يهدأ ثورانه وإنما يخضع هؤلاء الأكراد لايران والعراق وتركيا؟ وكيف يهدأ لنا بال وفي الشمال الشرقى إقليم قارص وأردهان وأرتيقان وقد كان داخل في حدود أرمينيا السوفيتية قبل سنة ١٩١٩ وهو إقليم على جانب عظيم من الأهمية الحربية؛ لأنه يتحكم في الطريق إلى القوقاز؟ أما من ناحية الغرب فقد أخذنا أمورنا بأيدينا، وضمنا ولايات البلطيق كما كانت قبل الحرب العالمية الأولى، وأخذنا من بولندة وفنلندة أراضى كانت لنا في الماضي أيضاً. ولو أنها بقيت في أيدي غيرنا لتعرضت حدودنا الغربية للخطر.

ولا تنس أن الوحش قد هاجمنا مخترقا هذه الحدود مرتين في مدى خمس وعشرين سنة، وقد ذقنا من أهوال الحرب في المرتين ألوانا لم ير العالم مثلها، وقد راح ضحيتها ملايين من الشبان فضلا عن الخسائر المادية التي منيت بها البلاد. وإنه لا إجرام في حق الوطن أن تتساهل في أمر قد تتعرض بسببه لهجوم ثالث قد لا نقوى على احتماله مرة أخرى.

الأسد : — ولكن تأمين الحدود يا صديقى يجب أن يكون من مهمة مجلس الأمن فى هيئة الأمم المتحدة التى تضافرت جهودنا على إنشائها، وبذلك يصبح التأمين عامًّا يصون السلم فى جميع الأرجاء . أما أن يكون التأمين مهمة فردية تتولاها كل دولة وفق مصلحتها الخاصة ، فإن مثل هذا التصرف لا يلبث أن يؤدى إلى التنافس الحربى ، ومن ثم يكون سبباً إلى حرب عالمية ثالثة . وكما أن الحرب لا تتجزأ : إذا نشبت فى إقليم اندلعت منها شرارات الحرب العامة سريعاً ، فكذلك السلم يجب ألا تتجزأ حتى ينتشر لواءها على العالم أجمع . ثم لماذا تخشون الوحش وقد تقطعت أوصاله وانهد بنيانه ! وأكبر الظن أنه لن تقوم له قائمة إلا بعد أجيال ، وبعد أن يكون العالم قد تطهر من أدران الحرب واتخذ عدته لإبادة جرثومتها . لا بد أن يكون فى الأمر خبيء تعملون على كتمانها ، وإلا فصد من تريدون هذه التأمينات ، وتقيمون هذه التحصينات ؟

الدب : — إن أمرك أيها الأسد لغريب حقًّا . تسألنى ضد من هذه التأمينات وأنت لذى ابتدعت النقط والقواعد الاستراتيجية ، واستمسكت بالمناطق والشرابين الحيوية ، ووضعت يدك على مفاتيح أهم المنافذ البحرية فى العالم ! ألسنت أنت المتسلط فى البحر المتوسط بقواعدك فى جبل طارق ومالطة وقبرص وفلسطين وقناة السويس وعدن ، فضلاً عما بيدك من أملاك وجزر وقواعد فى سائر أركان المعمورة ، وكل هذا لتأمين طريقك إلى أملاكك الواسعة . . . فلماذا تبيع لنفسك ما تأباه على غيرك ؟ ألم يعلن ابن عمك الأمريكى أمام الملاء فى أثناء الحربين العالميتين أن فى مقدمة أغراضكم من الحرب إعلان حرية البحار ، ولا تزال مع ذلك مفاتيح البحار فى أيديكم إلى الآن !

الأسد : — إن لناظروفا خاصة لا إخال دولة أخرى فى العالم تشاركنا فيها ؛ إذ لا يخفى عليك أننا نسكن جزيرة صغيرة لا تبلغ جزءاً من مائة من مساحة بلادكم ، وقد اجترنا مرحلة الزراعة منذ ظهور حركة الانقلاب الصناعى فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ، وأصبح أساس ثروتنا الصناعة والتجارة ، وجل اعتمادنا فى غذائنا وخاماتنا على ما يرد إلينا من أنحاء الإمبراطورية ومن الخارج ، لذلك نعتبر أسطولنا الحربى والتجارى خط دفاعنا الأول ؛ فإذا لم نحفظ بتفوقنا فى

البحار تعذر علينا ضمان سلامة اتصالاتنا بأملنا كنا وبالعالم الخارجى ، وأعوزتنا الخلمات والأغذية ، وتعرض أطفالنا وأسرننا لخطر الجوع والحرمان . هذا هو الفرق بينى وبينك وبينى وبين ابن عمى : كلا كما فى غنى نسبي عن العالم الخارجى ؛ فلديكما الكفاية من موارد الخلمات والأغذية ، وقد حبسكما الطبيعة بإنتاج وافر من مادة زيت البترول الذى يعتبر بحق عصب النشاط الاقتصادى والحربى ، فأتتم تنتجون منه مقدار ١٠٠٦ . ٠٪ من إنتاج العالم . وأما الولايات المتحدة فتنتج ٦١٣ . ٠٪ منه ، وهى ميزة لكما تفوق كل تقدير وتتيح لكما أن تتهجا فى سياستكما خطة العزلة عن مجموعة الدول حين يبدو لكما . وأما نحن فنعيش عالة على غيرنا ؛ إذ نستورد من الخارج كل حاجتنا من زيت البترول اللهم إلا نسبة ضئيلة تنتجها كندا والهند . حتى زميلنا الديك الفرنسى يستطيع أن يعيش على موارده الخاصة وإنتاج أملاكه القريبة منه دون أن يتعرض للخطر مثلنا . من ذلك ترى أيها الصديق أن القوة البحرية وما يتبعها من قواعد البحرية هى مسألة حياة أو موت بالنسبة إلينا ، وفى اليوم الذى نتخلى فيه عن قواعدنا ونقطننا الاستراتيجية فى عرض البحار نكون قد نزلنا عن مكانتنا كدولة عظمى ، وأنكرنا تاريخنا وتقاليدينا ، وغمطنا حق ذرارينا وأسلافنا وبالاختصار نكون قد انتحرننا .

الدب : — لست أظن أن العالم يخسر كثيراً بذهابكم ، فقد انتهى زمانكم وأديتم رسالتكم على قدر ما سمحت به ظروف الجهل والفقر والضعف التى كانت تسيطر على العالم فى أثناء تفوقكم . وكفأكم أنكم أدخلتم النظم الديمقراطية النيابية فى بلاد العالم ، فأشعتم فيها الخلافات الداخلية ، وساعدتم على الفرقة والتنافر والتناحر الحزبى بين أبناء الوطن الواحد ، بقصد الوصول إلى كراسى الحكم وتأليف الوزارات التى ابتدعتموها . كفأكم أنكم جعلتم الشاى شرباً عالمياً ، ولعب الفوتبول رياضة أومية ! وستذكر لكم الأجيال المقبلة حروبكم وما بذلتم من جهد فى سبيل استعمار إيرلندا والهند وأمريكا وإفريقية ، وفرض رقابتكم على البحار فى الحرب والسلم . أما الآن وقد فتحت الكشوف العلمية الهائلة آفاقاً جديدة لحياة جديدة مليئة بالنذر والاحتمالات ، فإن هذه الحياة تتطلب دماً جديداً ودروساً جديدة يقوم بها أساتذة مدربون تدريباً جديداً

فى مدارس غير مدارسكم ، ووفق آراء وفلسفات غير آرائكم وفلسفاتكم .
 الأسد : — قال القديما أو المحدثون — لا أدرى — إن من لا يتطور
 يتقهقر . والسرفى بقاء فصيلتنا إلى الآن أننا نطبق نظرية التطور فى جميع نظمنا
 وآرائنا السياسية والاقتصادية حتى الاستعمارية . وأحسب أنك تعلم أن
 مستعمراتنا وأملاكنا فى عرض البحار قد أصبحت مع التطور دولا مستقلة
 شكلا وموضوعا ، حتى إن بعضها قد قرر فى الحرب الأخيرة أن يلزم الحيطة ،
 ولو شئنا لأرغمناها على دخولها إلى جانبنا ، ولكننا آثرنا حرية الرأى على
 مصلحتنا الخاصة . وما مثل جنوب إفريقيا فى أول الحرب وإيرلندا طوال
 مدة الحرب ببعيد . وإنما لنباهى بأننا منذ القرن التاسع عشر وإلى الآن لم نزل
 ندافع عن حقوق الشعوب الصغيرة ، وزعى مصالحها ضد قوى الاستبداد
 والرجعية ، فساعدنا على ظهور قوميات مستقلة جديدة تتمثل فى جمهوريات
 أمريكا وفى اليونان وبلجيكا وفى الشرق الأوسط . وأظن أن العالم سيدكر لنا
 جهودنا فى سبيل تحرير الرقيق ، وتكوين جمعيات الصايب الأحمر ، وتحرير
 المرأة ، ونظام الكشافة ، وحرية التجارة ، وحتى الانتخاب العام . وما دمننا
 مؤمنين بنظرية التطور والحرية ، فإن بريطانيا لن تموت ، وسترى أيها الرفيق
 أن العالم لن يفيد من الثورة والعنف بقدر ما يفيد من الحرية مع التدرج
 والتطور .

الدب : — إنى أمقت التباطؤ والتدرج ، وأدين بالثورة التى خلقت روسيا
 الجديدة ، وأعتقد أن النظام الديمقراطى بما ينطوى عليه من تراخ وضعف وتمييز
 بين الطبقات هو سبب ما يعائيه العالم الآن من قلاقل واضطرابات .
 دعنى أنفذ برنامج الثورة الشيوعية الدولية ، وسترى كيف يبرأ العالم من
 أدواته الاجتماعية والاقتصادية والسياسية جميعا

الأسد : — إنى أعتقد أن التطور هو النظام الطبيعى ، فالثمرة لا تنضج فى
 يوم وليلة ، بل لا بد لها من تربة صالحة ورى وغذاء وتقليم وتشذيب وتطعيم
 وتدخين حتى تطيب وتتدانى للأكلين . أما الثورة فظاهرة شاذة تقذف
 بالشعوب فى ألوف من التجارب والانقلابات العنيفة الدامية القاسية ، ثم

لا تلبث فورة الثورة أن تخبث ويمعقها رد فعل طويل من الضعف والإرهاك والإخلاق إلى التواكل والقناعة . قد تكون الثورات السياسية ضرورة طبيعية فى عصور الاستبداد والتسلط القديم . أما فى هذا العالم الجديد الذى يجب أن تتمتع فيه الشعوب باستقلالها والأفراد بحريتها فى حدود القانون — فنحن فى حاجة إلى ثورة من نوع آخر فى البحوث العلمية والاكتشافات الآلية الجديدة التى لا يقتصر تطبيقها على عتاد الحرب ، بل يجب استغلالها لرفع مستوى البشر ولمصاحبة الطبقات جميعاً للمصلحة طبقه دون أخرى . ولا أمل فى تحقيق ذلك إلا إذا تعاونت الشعوب ، وأمنت العدوان عليها ، ونعمت بكامل حريتها وسيادتها فى الداخل والخارج .

الدب : — هذه مجرد نظريات تتشدد بها .

الأسد : — كذلك كان الطيران مثلاً ، وكان التسامح الدينى ، وكانت القنبلة الذرية — كلها كانت مجرد نظريات فى أول أمرها ثم أصبحت بالممارسة والتجربة حقيقة يفيد منها العالم أجزل الفوائد .

الدب : — وكيف توفق بين فكرة الاتحاد العالمى الذى تنشده وتمسك الدول بكامل حريتها وسيادتها ؟

الأسد : — أريد أن يكون الاتحاد العالمى لمنع الحروب ، وتيسير المواصلات والتجارة ، ونشر الصحة والثقافة ، وتوفير العمل بين شعوب العالم . أما فى الشؤون الداخلية ، وحق الملكية ، وحرية العبادة والتعبير ، واختيار نوع الحكم ، فزريد حرية كاملة فى حدود القانون دائماً وسيادة تامة بحيث لا تتدخل دولة فى شؤون دولة أخرى . ولا يتحقق كل هذا — كما ذكرت لك — إلا بالتعاون واحترام الحريات .

الدب : — ألسنت عضواً متعاوناً معكم فى هيئة الأمم المتحدة وفى مجلس الأمن ؟

الأسد : — حقاً نحن جميعاً أعضاء ، ولكننا غير متساوين مع الآخرين .
 وأساس التعاون المساواة ، فإذا انتفت زالت الثقة وحلت مكانها الريب والظنون .
 وقد تذرعنا بحقنا كمحاربين غالبين فى الحرب الأخيرة ، وتمسكنا نحن الحمسة
 الكبار بحق الإجماع فى التصويت بيننا ، وابننى على ذلك أن واحداً منا نحن
 الحمسة يستطيع أن يحول دون تنفيذ أى قرار يتخذه مجلس الأمن أو الجمعية
 العمومية للأمم المتحدة مهما عظم أمره ومهما بلغت الكثرة فى جانبه . وقد
 أثبتت الظروف أننا كنا على خطأ فيما قررنا ، فإننا بذلك قد فتحنا هوة عميقة
 بيننا وبين أم العالم جميعاً . ويدهشنى أنكم تناهضون مبدأ المساواة بين الدول
 على حين تمحض ثورتكم على المساواة بين الجميع .

إن مبدأ احترام المساواة يقتضينا أن نترز عن حق « الثيتو » ، وأن نؤمن
 بحق الكثرة . فإذا لم نترز عن هذا الحق الذى اغتصبناه لأنفسنا فلا مندوحة
 لنا من أن نعمل على كسب الأصوات بالحق وبالباطل ، وقد تؤدى بنا الحال
 إلى بعث قوة الوحش من جديد ليكسبه واحد منا إلى جانبه ، وحينئذ تتحقق
 نبوءة هتزل حين قال إنه إذا ذهب ، فإن الديمقراطية والبلشفية لا تلبثان أن
 تصطرعا ، وفى اصطراعهما فرصة ألمانيا وبعث للنازية من جديد . فلنكن على
 حذر . وأولى لنا أن نتفق ، ولا يصح أن يلدغ أحدنا من جحر أكثر من مرتين !

الدب : — كفى ! إنك تمحاضرنى ! وما كنت أظن أن محادثتنا ستقلب
 سريعاً إلى محاضرة من جانب واحد . فإلى اللقاء عندما يعود مولوتوف من الغابة .

محمد رفعت